مجلة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

إسلامية فكرية ثقافية محكمة

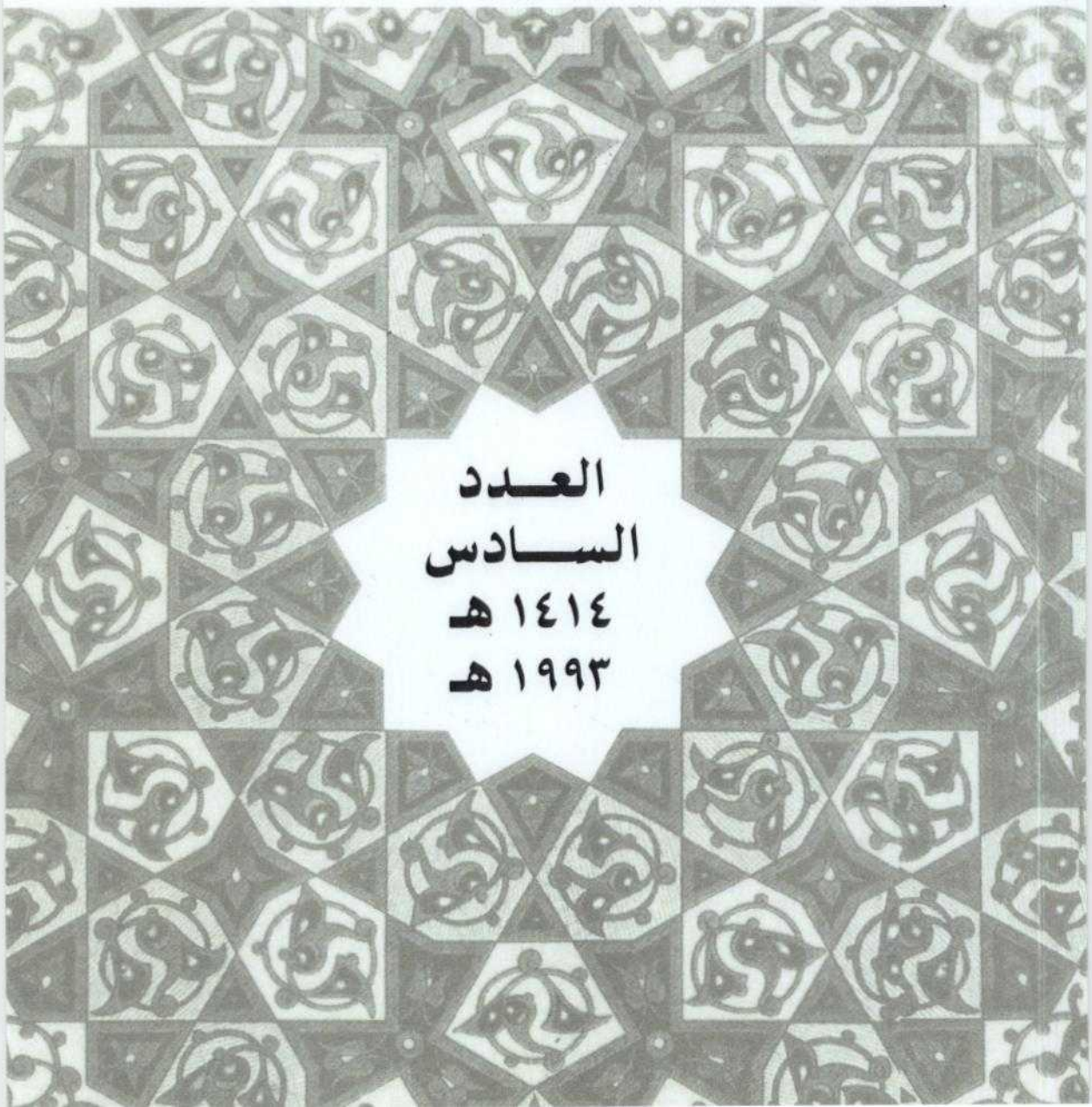

العدد
السادس
١٤١٤ هـ
١٩٩٣ هـ

الخلاف بين النحويين
في صيغة (ما أفعل) للتعجب

د.عدنان خلف أبوجري*

معنى التعجب:

يؤخذ من أقوال العلماء أن التعجب: انفعال نفساني يعتري الإنسان عند استعظامه أمراً نادراً مجهول السبب(١).

ومن هذا التعريف نلمح أنه لابد من وجود شيئين حتى يحدث هذا الانفعال، هذان الشيئان هما:

- الاستعظام
- وخفاء السبب

هذا هو الأصل في التعجب، لكننا كثيراً ما نتعجب حين نستعظم شيئاً ما مع علمنا بسببه، أو من غير أن يكون لذلك الاستعظام سبب.

وقد منع بعض العلماء نسبة التعجب إلى الله تعالى، لأنه يرى أن خفاء شيء ما على الله محال(٢)، ولذلك أنكر قراءة من قرأ (بل عجبتُ ويسخرون)(٣) بضم التاء من عجبت.

ورد العلماء على هذا المذهب بالقول: إن معنى التعجب في حق الله تعالى هو مجرد الاستعظام بينما في حق العباد استعظام مع خفاء للسبب(٤). ففي نحو قوله تعالى: (فما أصبرهم على النار)(٥).

---

* مدرس النحو في قسم اللغة العربية، بكلية الدراسات الإسلامية والعربية، دبي.

١ ـ اللسان (عجب) والإتقان في علوم القرآن ٢/٧٦ والبحر المحيط ١/٤٩٤، والنحو الوافي ٣/٣٣٩.

٢ ـ التفسير الكبير (الرازي) ٣/٣١.

٣ ـ الصافات ١٢.

٤ ـ التفسير الكبير ٣/٣١.

٥ ـ البقرة ١٧٥.

قال العلماء: إن التعجب في هذه الآية مصروف إلى المخاطبين، أي هؤلاء يجب أن يُتعجّب منهم، وهم ممن يقول فيهم من رآهم: ما أصبرهم على النار، أي أنهم منزلون منزلة من يُتعجّب منه(١).

ورأى بعضهم أن يعبر عن مثل هذا بالتعجيب والمراد تعجيب الله للمخاطبين. وشبه العلماء التعجب هنا بما ورد في القرآن من معنى الترجي والدعاء والاستهزاء والمكر، ورأوا أن يُنظر إلى هذه المعاني على أنها مصروفة للمكلفين، وإلى أن هذا الأسلوب مما تكلمت به العرب فجاء به القرآن على لغتهم(٢).

أساليب التعجب:

تقسم أساليب التعجب إلى قسمين:

أ ـ أساليب قياسية:

وهي ما حظيت باهتمام النحاة، فبوّبت لها الأبواب، وفُصِّل فيها القول، واصطلح على تسميتها بصيغ التعجب أو أفعال التعجب.

ب ـ أساليب سماعية:

وهي ما استعملت في التعجب وفي غيره، ولا تدرك دلالتها على التعجب من خلال الصياغة والتركيب، بل من خلال السياق والقرائن. ولم يفرد النحاة لهذا النوع من الأساليب أبواباً خاصة بها، كما أنهم لم يلحقوها بباب التعجب كقولهم: لله دَره فارساً.

الأساليب القياسية:

ذكر النحاة لهذا النوع صيغتين هما:

(ما أفعَلَه) و(أفْعِلْ به) ووضعوا لكلّ منهما أحكاماً، وسيقتصر الحديث في

---

١ ـ الكتاب (بولاق) ١٦٧/١ والمقتضب ١٨٣/٤ والبحر المحيط ٤٩٤/١ والكشاف ١٨٥/٤.

٢ـ الكتاب ١٦٧/١ والإتقان ٧٦/٢ والمقتضب ١٨٣/٤.

هذا البحث على المسائل الخلافية المتعلقة بالصيغة الأولى (ما أفعله):

(صيغة ما أَفْعَلَه)

إذا أراد شخص ما أن يعبر عن اندهاشه لدى رؤية حديقة جميلة، فإنه يقول: ما أجَملَ الحديقة! وعند تحليل هذه الصيغة نجد أنها تتألف من ثلاثة أجزاء هي:

(ما) و(أجمل) و(الحديقة)

ولكل واحد منها وظيفته في هذه الصيغة:

ف (ما): تدل على المعنى الإنشائي للتعجب،

و(أجَمْلَ) أو (أفْعَلَ): يدل على المعنى المراد التعجب منه،

و(الحديقة): تدل على ما يراد التعجب منه أو من شيء يتعلق به. وللنحاة في هذا الأجزاء كلام طويل وآراء متعددة، وفيما يلي عرض لتلك الآراء ثم ترجيح لما نراه راجحاً منها:

أولاً: (ما)

اتفق النحاة على أنها اسم وأنها واجبة التصدير في الجملة التعجبية، فلا يصح تأخيرها عما بعدها. كما اتفقوا على إعرابها مبتدأ.

واختلفوا في أصلها إلى أربعة أقوال:

أولها: قول سيبويه والبصريين والأخفش في قول وبه أخذ معظم المتأخرين(١)، فقد ذهبوا إلى أنها نكرة تامة بمعنى (شيء)، وعلى هذا فهي مبتدأ خبره الجملة الفعلية بعده. والتقدير: شيءٌ أجمل الحديقة.

لكن هذا القول يصطدم بقاعدة نحوية أخرى هي منع الابتداء بالنكرة. وأجابوا عن هذا بالقول: إن المسوغ للابتداء بها مع كونها نكرة تضمنها معنى

---

١ ـ الكتاب (بولاق) ١/٣٧ شرح الكافية للرضي ٢/٣١٠ المغني ١/٣٢٩.

التعجب، قال سيبويه «هذا باب ما يعمل عمل الفعل ولم يجر مجرى الفعل ولم يتمكن تمكنه، وذلك قولك: ما أحسنَ عبدَالله، زعم الخليل أنه بمنزله قولك: شيءٌ أحسن عبدالله، ودخله معنى التعجب»(١).

ثاني الأقوال: وهو ما نسب إلى الأخفش في ثاني أقواله، فقد ذهب إلى جواز أن تكون (ما) اسما موصولاً(٢)، وعليه فالجملة الفعلية بعدها صلة لها لا محل لها من الإعراب، والخبر محذوف والتقدير: الذي أجمل الحديقة شيء عظيم.

ثالث الأقوال: وهو ما نسب إلى الأخفش أيضاً في ثالث أقواله، فقد جوز أن تكون نكرة موصوفة والجملة الفعلية بعدها صفة لها موضعها الرفع(٣)، والخبر محذوف هنا أيضا والتقدير: شيء أجمل الحديقة عظيم.

رابعها: قول الفراء وابن درستويه، فقد ذهبا إلى أن أصلها الاستفهامية لكنها ضمنت معنى التعجب(٤)، وعلى هذا فهي مبتدأ خبره ما بعده، والتقدير: أيُّ شيء أجمل الحديقة؟ ثم نقلت إلى إنشاء التعجب.

الترجيح:

أرى أن أرجح هذه الأقوال هو رابعها، وذلك لما يلي:

١/لقوته من جهة المعنى، لأننا وجدنا الاستفهام يتجاوز معناه الحقيقي إلى معان أخرى من بينها التعجب، كقوله تعالى: «وما أدراك ما يوم الدين»(٥)، ومن جهة أخرى فإن جهل المتعجب السبب المؤديَ إلى حدوث ذلك الشيء المتعجب منه دعاه إلى السؤال عن ذلك السبب(٦).

٢/ لسهولته من الناحية الإعرابية، فالقول إنها استفهامية لا يحتاج إلى

---

١ ـ الكتاب ١/٣٧

٢ ـ شرح الكافية ٢/ ٣١٠ المغني ١/٣٢٩

٣ ـ المرجعان السابقان.

٤ ـ شرح الكافيه للرضي ٢/ ٣١٠

٥ ـ الانفطار ١٧

٦ ـ شرح الكافية للرضي ٢/ ٣١٠

تقدير محذوف، على خلاف القول إنها نكرة موصوفة، أو إنها اسم موصول فإنه يؤدي إلى تقدير خبر محذوف لها، وحذف الخبر وجوباً من غير دليل مخالف للقواعد النحوية، يقول المبرد: «وقد قال قوم إن (أَحْسَنَ) صلة لـ(ما) والخبر محذوف، وليس كما قالوا، وذلك لأن الأخبار إنما تحذف إذا كان في الكلام ما يدل عليها»(١).

٣/ لاستعمال (ما) الاستفهامية مبتدأ بصورة كبيرة في كلام العرب، كقوله تعالى: «ما لونها»(٢) «ما القارعة»(٣) بينما لم ترد (ما) النكرة التامّة التي بمعنى «شيء» مبتدأ، قال الرضي: «ومذهب سيبويه ضعيف من وجه وهو أن استعمال (ما) نكرة غير مرصوفة نادر.. ولم تسمع مع ذلك مبتدأة»(٤).

اعتراض وردّ:

اعترض بعض النحاة على هذا القول الأخير بالقول إن الانتقال من إنشاء إلى إنشاء غير وارد في اللغة، وإنما الوارد هو الانتقال من خبر إلى إنشاء، قال الرضي «قيل مذهبه ضعيف من حيث انه نقل من معنى الاستفهام إلى التعجب، فالنقل من إنشاء إلى إنشاء مما لم يثبت»(٥).

ويُرد على هذا الاعتراض بما ورد في المصدر السابق حيث يقول «وقد يُستفاد من الاستفهام معنى التعجب نحو قوله تعالى (وما أدراك ما يوم الدين)(٦)...»(٧). فقد ثبت بهذا أن الانتقال من إنشاء إلى إنشاء أسهل من الانتقال من خبر إلى إنشاء.

يُضاف إلى هذا أن الإبهام المستفاد من معنى الاستفهام يقوي ما رجحناه،

---

١ ـ المقتضب ٤/١٧٧
٢ ـ البقرة ١٩
٣ ـ القارعة ٢
٤ ـ شرح الكافية ٢/٣١٠
٥ ـ شرح الكافية للرضي ٢/٣١٠
٦ ـ الانفطار ١٧
٧ ـ شرح الكافية للرضي ٢/٣١٠

لأنه مما يوافق معنى التعجب، بخلاف القول إنها موصولة أو موصوفة، فإنه يخلو من ذلك، قال الرضي «وقال الأخفش في القول الآخر (ما) موصولة.. وفيه بُعد، لأنه حذف الخبر وجوبا... وأيضا ليس في هذا التقدير معنى الإبهام اللائق في التعجب»(١).

تعقيب:

إن مثل هذا التحليل تقتضيه الصنعة النحوية التي تميل دائما إلى الغوص في الأساليب العربية لسبر أغوارها وللكشف عن أسرارها، وليس فيه ما يضير النحو العربي. ولعلي في هذا أخالف ما ذهب إليه محمد الإنطاكي إذ يقول: «المنهج الأسلم أن يقال في مثل هذه الأساليب المحنطة التي لا يعرف أصلها، إنها وردت عن العرب هكذا، فيقاس عليها كما هي دون الخوض في تحليلات لا جدوى منها»(٢).

هذا ومع تأييدي القول إنها استفهامية الأصل أرى أنه من الأفضل أن يعبر عنها عند إعرابها بالقول: (ما) التعجبية، في محل رفع على الابتداء، من غير إشارة إلى أصلها الاستفهامي، وذلك لأنها في دلالتها على التعجب فارقت الأصل، وأصبحت ذات دلالة إنشائية مختلفة هي التعبير عن الاندهاش لدى استعظام أمر من الأمور، وقد أوضح ذلك المبرد بقوله: «قد يدخل المعنى في اللفظ ولا يدخل في نظيره، فمن ذلك قولهم: عَلِمَ الله لأفعلنّ، لفظه لفظ (رزق الله) ومعناه القسم، ومن ذلك قولهم: غفر لزيد، لفظه لفظ الخبر ومعناه الدعاء»(٣).

(أفْعَلَ)

ووظيفة أفعل التعجب هي الدلالة على المعنى الذي يراد التعجب منه، وقد جرى فيه خلاف بين النحويين كوفيين وبصريين من جهة الاسمية والفعلية(٤)،

---

١ ـ المرجع السابق
٢ ـ المحيط ٢/٣٦٢
٣ ـ المقتضب ٤/١٧٥، ١٧٦
٤ ـ الإنصاف ١/١٢٦ ـ ١٤٨

أورده ابن الأنباري مفصلا في الإنصاف مسألة ١٥ وفيما يلي تلخيص لذلك:

ذهب الكوفيون إلى أنّ (أفعل) اسم، وذهب البصريون والكسائي من الكوفيين إلى أنه فعل ماض مبني على الفتح.

استدل الكوفيون على قولهم بما يلي:

١ـ جموده، فلا يقال في (ما أجمل): ما يجمل، والجمود من صفات الأسماء.

٢ـ تصغيره، وهذا أيضا خاص بالأسماء، وأنشدوا قول الشاعر(١):

ياما أميلح غزلانا شدنّ لنا
من هؤليائكنّ الضالّ والسمر

فقد صغر (أملح) على (أميلح).

٣ـ صحة عينه، نحو قولهم: ما أبيَعه، وما أقوَمه، وهذا يشبه ما يحدث في الأسماء نحو: هو أقوَم منك وأبيع منك. ولو كان فعلا لوجب قلب عينه ألفا في مثل هذه الحالة نحو: قام وباع وأقام.. الخ.

ويكون إعرابه على هذا القول خبر (ما) وهو مبني على الفتح محله الرفع. وعلة بنائه هي للتفريق بين الاستفهام والتعجب ولأنه تضمن معنى التعجب(٢).

أما البصريون فقد أوردوا الأدلة التالية على الفعلية:

١ـ لحاق نون الوقاية له وجوبا مع ياء المتكلم، نحو: ما أفقرني إلى رحمة الله، وهذه النون إحدى علامات الأفعال، وأما لحاقها بعض الحروف والأسماء فهو من الشاذ الذي لا يقاس عليه(٣).

٢ـ نصبه المعارف والنكرات على حد سواء، ولو كان اسما لما نصب إلا النكرات خاصة على التمييز نحو: زيد أكبر منك سِنّاً(٤).

---

١ ـ الإنصاف ١/١٢٧ وخزانة الأدب ١/٤٥ واللسان (ملح)

٢ـ الانصاف ١/١٣٧

٣ ـ المقتضب ٤/١٨٥

٤ ـ الإنصاف ١/١٣٧

٣ـ فتح آخره، فلو كان اسمًا لارتفع على أنه خبر (ما).

ثم أجابوا عن أدلة الكوفيين بما يلي:

١ ـ أنّ عدم التصرف لا يدل على اسميته، بدليل أن عسى وليس فعلان ومع ذلك لا يتصرفان. وعلة جمود فعل التعجب تضمنه معنى التعجب ودلالته على معناه بالصيغة، وسبب جموده على صيغة الماضي أن التعجب يكون مما هو مشاهد واقع ولا يكون مما لم يكن، لذلك امتنع تصرفه للمضارع وبقي على صيغة الماضي.

٢ ـ أنّ تصغيره لا يدل على الاسمية، وذلك لأنه محمول على أفعل التفضيل لدلالة كل منهما على المبالغة والتفضيل، فيقال هنا: ما أحيسن زيداً، وما أميلح غزلانا، كما يقال في اسم التفضيل: غزلانك أميلحُ الغزلان.

ومن جهة أخرى قالوا إن التصغير دخله لشبهه بالأسماء في لزومه طريقة واحدة، فأخذ بعض أحكامها، وحمل الشيء على الشيء في بعض الأحكام لا يخرجه عن أصله، ويشبهه في هذا الفعل المضارع فقد أعرب حملا على الاسم، ومع ذلك لم يخرج عن فعليته.

٣ ـ فيما يتعلق بتصحيح العين قالوا: إن ذلك حصل فيه من حيث حصل فيه التصغير، وذلك حملا له على باب أفعل التفضيل، وهذا لا يخرجه عن الفعلية. ومع ذلك فهناك أفعال كثيرة واردة في اللغة مصححة العين، كقولهم: أغْيَلَت المرأة، واستَنْوَق الجمل، واستَحْوَذ... الخ وقالوا: إن العلة في ذلك هي التنبيه على الأصل.

والذي أختاره قول البصريين لما قدموا من أدلة قوية على مذهبهم. وعلى قولهم يقال في إعراب (أفعل): فعل جامد جاء على صيغة الماضي، مبني على الفتح، وفاعله ضمير مستتر وجوبا تقديره (هو) يعود إلى ما، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ (ما).

(المتعجب منه):

ويقصد به الاسم الذي يراد التعجب منه أو من شيء يتعلق به وقد اختلف في إعرابه تبعاً لاختلافهم في حقيقة (أفعل) التعجب. ويتلخص إعرابه فيما يلي:

أ ـ مفعول به لأفعل التعجب، على القول بفعلية (أفعل).

ب ـ مشبه بالمفعول به، وذلك على القول باسمية (أفعل) كما ذهب الكوفيون، ففي نحو: ما أحسن زيداً، المعنى: أيُّ شيء أحسنُ من زيد؟ وفي هذا استفهام إنكاري في أنه وجد أحسن من زيد، ولما خرج الكلام من معنى الاستفهام إلى معنى التعجب اقتضى أن يتبعه اختلاف في الحركات، لأن الحركات تبع للمعاني، ففتح (أفعل) ونُصب المتعجب منه بعد أن كان مجروراً، وسبب آخر أدى إلى نصب المتعجب منه في رأيهم هو أن (أفعل) التفضيل فيه معنى الفعل، وكل ما فضل عليه غيره فيه معنى المفعول، ولذلك حمل المتعجب منه عليه في إعرابه(١). ثم اعترضوا على إعرابه مفعولا به قائلين إنه على هذا المعنى يتعارض مع قولهم: ما أعظم الله، لأن التقدير حينئذ: شيء أعظم الله، والله تعالى عظيم لا بجعل جاعل(٢).

وقد أجاب البصريون عن هذا الاعتراض بالقول: إن معنى قولهم: شيء أعظم الله، أي: وصفه بالعظمة، كما يقول الرجل إذا سمع الأذان: كبّرت كبيرا وعظّمت عظيما، أي وصفته بالكبرياء والعظمة، لا صيّرته كبيراً أو عظيمًا، فكذلك ها هنا.

ثم قالوا: ويقصد (بالشيء) هنا ثلاثة معان:

أحدهما: أن يعنى بالشيء ما يدل على عظمة الله تعالى وقدرته من مخلوقاته.

والثاني: أن يعنى بالشيء من يعظمه من عباده.

والثالث: أن يُعنى به نفسه: أي أنه عظيم لنفسه لا لشيء جعله عظيمًا وقالوا يحتمل أن يكون قولنا «شيء أعظم الله» بمنزلة الإخبار أنه عظيم لا على معنى (شيء أعظَمَه) فإن الألفاظ الجارية عليه سبحانه يجب حملها على ما يليق

١ـ الانصاف ١/١٣٧ التفسير الكبير ٣/ ٣٤

٢ـ الإنصاف ١/١٢٨

بصفاته، ومثلوا لذلك بورود (عسى) و(لعل) في القرآن، فإنهما يدلان في الأصل على الرجاء وفيهما طرف من الشك، ولا يجوز ذلك في حقه سبحانه وتعالى، وكذلك هنا فإنّ المعني بقولهم: (ما أعظم الله) هو الإخبار بأنه عظيم(١).

مثال للتحليل:

قال تعالى «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار»(٢).

اختلف النحاة والمفسرون في (ما) الواردة في الآية فقد ذهب بعضهم إلى أنها استفهامية وذهب آخرون إلى أنها تعجبية، ومن أصحاب القول الأول: الفراء(٣) في أحد قوليه والمبرد(٤) ونسب إلى ابن عباس والسدّي(٥)، قالوا: إن الاستفهام هنا جاء على معنى التوبيخ لأهل النار والتقدير: أيّ شيء أصبرهم على النار حتى تركوا الحق واتبعوا الباطل، قال المبرد وأما قوله «فما أصبرهم على النار» فليس من هذا ـ يعني التعجب ـ ولكن والله أعلم التقرير والتوبيخ، وتقديره: أيُّ شيء أصبرهم على النار؟ أي دعاهم إليها، واضطرهم إليها، كما تقول: صَبَرْتُ زيدا على القتل، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُصْبر الروح»(٦) ويفهم من قول المبرد أنه يرى أنّ معنى (أصْبَر) في الآية هو (صَبَرَ) الذي بمعنى (حبس) ففي مختار الصحاح قال: «صبره: حبسه، قال تعالى: «واصبر نفسك»(٧) وفي حديث النبي عليه الصلاة والسلام في رجل أمسك رجلا وقتله آخر قال: اقتلوا القاتل واصبروا الصابر أي احبسوا الذي حبسه للموت حتى يموت(٨).

وخالفه بعض المفسرين بأن قال إن همزة (أصْبَر) همزة تعديه والمعنى: أيُّ شيء جعلهم يصبرون على النار؟ لا أن (أصبر) هنا بمعنى (حَبَس) و(اضطر) من هؤلاء السدي وابن عباس(٩).

١ـ الإنصاف ١/١٤٧ المقتضب ٤/١٧٦
٢ـ البقرة ١٧٥
٣ـ معاني القرآن للفراء ١/١٠٣
٤ـ المقتضب ٤/١٨٣
٥ـ البحر المحيط ١/٤٩٥
٦ـ المقتضب ٤/١٨٣
٧ـ الكهف ٢٨
٨ـ مختار الصحاح (صبر)
٩ـ البحر المحيط ١/٤٩٥

وبناء على هذا القول يكون إعراب الآية على النحو الآتي:

ما: استفهامية في محل رفع مبتدأ. أصبر: فعل ماض مبني على الفتح، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو عائد على (ما). والجملة في محل رفع خبر ما. هم: ضمير متصل في محل نصب مفعول به. على النار: متعلقان بالفعل (أصبر). والتقدير على هذا: أيُّ شيء صبَّرهم على النار؟

وأما القائلون بأنها تعجبية فقد اختلفوا في حقيقة الصبر، هل هو صبر حاصل لهم في النار؟ أم أنه صبر يوصفون به في الدنيا؟ وممن ذهب إلى القول الأول الأصم، وذهب الجمهور إلى القول الثاني. ووضح الأصم ذلك بالقول: إذا قيل لهم (اخسئوا فيها ولا تكلمون)(١). سكتوا وانقطع كلامهم وصبروا على النار ليأسهم من الخلاص. وضعف هذا القول بأن ظاهر التعجب أنه من صبرهم في الحال، لا أنهم سيصبرون، وبأن أهل النار قد يقع منهم الجزع(٢).

ومن أصحاب هذا القول من رأى أنّ الصبر مجاز يقصد به البقاء في النار، والمعنى: ما أبقاهم في النار!(٣)

وأما القائلون بأن الصبر يوصفون به في الدنيا، فقد اختلفوا أيضا في معنى الصبر هل هو حقيقة أم مجاز؟

فالقائلون بأنه حقيقة ذكروا له عدة معان منها:(٤)

١ ـ ما أصبرهم على عمل يؤديهم إلى النار، لأنهم كانوا علماء بأن من خالف النبي صلى الله عليه وسلم صار إلى النار، قاله مؤرج.

٢ ـ ما أصبرهم على عمل أهل النار، كما تقول: ما أشبه سخاءك بحاتم أي: بسخاء حاتم، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، وهو قول الكسائي

١ـ المؤمنون ١٠٨

٢ـ البحر المحيط ١/ ٤٩٤

٣ـ المرجع السابق

٤ـ المرجع السابق

وقطرب، وهو قريب من القول الأول.

٣ ـ ما أجرأهم على العمل الذي يقرب إلى النار، أي أن أصبر بمعنى (أجرأ) وهو مذهب الفراء في ثاني قوليه(١) ومن المفسرين الحسن وقتادة والربيع(٢).

هذا ملخص أقوال من ذهب إلى أن استعمال الكلمة على الحقيقة. أما القائلون بأن الصبر مجاز فقد ذكروا له عدة معان هي:(٣)

١ ـ أن المراد به العمل، والتقدير: ما أعملهم بأعمال أهل النار، قاله مجاهد.

٢ ـ ان المراد به قلة الجزع، أي ما أقل جزعهم من النار.

٣ ـ ان المراد به الرضا، وتقريره أن الراضي بالشيء يكون راضياً بمعلوله ولازمه إذا علم ذلك اللزوم فلما أقدموا على ما يوجب النار وهم عالمون بذلك صاروا كالراضين بعذاب الله والصابرين عليه، قال في الكشاف «تعجّب من حالهم في التباسهم بموجبات أهل النار من غير مبالاة منهم، كما تقول لمن يتعرض لما يوجب غضب السلطان: ما أصبرك على القيد والسجن، تريد أنه لا يتعرض لذلك إلا من هو شديد الصبر على العذاب»(٤).

وبناء على هذا القول يكون إعراب الآية على النحو التالي: (ما) التعجبية، اسم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. (أصبر) فعل التعجب، فعل ماض مبني على الفتح، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود على (ما)، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ. هم: ضمير متصل في محل نصب مفعول به. (على النار) جار ومجرور متعلقان بالفعل أصبر.

الفصل بين (ما) وأفعل التعجب بـ كان:

ورد في الكلام العربي الفصل بين ما وأفعل بكان كقول الشاعر:(٥)

١ـ معاني القرآن للفراء ١/١٠٣ ٣ـ المرجع السابق

٢ـ البحر المحيط ١/٤٩٤ ٤ـ الكشاف ١/٢١٦، والبحر المحيط ١/٤٩٤

٥ـ نسب إلى عبدالله بن رواحة رضي الله عنه وليس في ديوانه المطبوع انظر شرح ـ عمدة الحافظ ص٢١١ وشرح الكافيه الشافية ٢/١٠٩٩

مـا كـان أسعـد من أجـابك آخـذاً بهـداك مجتنبـاً هـوى وعنـادا

وقول الآخر:(١)

حَجَبَتْ تحيتهـا فقلت لصـاحبي مـا كـان أكثـرهـا لنـا وأقلّهـا

وقول الآخر:(٢)

أرى أمّ عمـرو دمعهـا قـد تحـدّرا بكـاءً على عمـرو ومـا كـان أصبرا

ولا يـوجـد خـلاف بين النحـاة ـ فيما أعلم ـ في جـواز ذلك وإنما الخـلاف الحاصل بينهم هو في نوع (كان)، ولهم في ذلك ثلاثة أقوال:

أولها: أنها زائدة

ثانيها: أنها تامة

ثالثها: أنها ناقصة

أما القول الأول فهو مذهب الجمهور، ولهم في معنى الزيادة قولان:(٣)

أولهما: أنها غير عاملة، فهي مستغنية عن الفاعل، أو الاسم والخبر، ومعناها مراد، وهو الدلالة على الزمن الماضي قال سيبويه: «تقول ما كـان أحسن زيـداً، فتذكر (كان) لتدل أنه فيما مضى»(٤). ذلك لأن فعل التعجب وإن ورد بصيغة الماضي فـإنـه لا يـدل على المضي، لأنـه جمد وأصبـح يـدل على إنشـاء التعجب فحسب. وفي هذا يقول ابن مالك: «ولما كان فعل التعجب مسلـوب الـدلالـة على المضي وكان المتعجب منه صالحاً للمضي، أجازوا زيـادة كـان إشعـاراً بـذلك عن

١ـ البيت ضمن أبيات خمسة نسبت في شرح الحماسة للتبريزي ٣/٢١١ لعروة بن أذينة ومطلعها:

إن التي زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها

وهي في أمالي القالي ١/١٥٦ من غير نسبة.

٢ـ امرؤ القيس، ديوانه ص٦٩

٣ـ حاشية الصبان على الأشموني ١/٢٣٨

٤ـ الكتاب ١/٣٧ (بولاق) والنحو الوافي ١/٥٢٤

٥ـ شرح التسهيل، ورقة ١٤٥/ب، وشرح المفصل ٧/١٥٠

قصده»(٥).

ثانيهما: أن معنى الزيادة هو أن الكلام مستغن عنها بسقوطها، فلا يختلّ معناه عند حذفها، وفائدة زيادتها في هذه الحالة هي تقوية المعنى وتوكيده(١).

وأرجّح هنا ما رجّحه الأستاذ عبّاس حسن من أنّ معنى زيادتها هو الدلالة على الزمن الماضي(٢). وهو في الحقيقة قول سيبويه(٣).

وبناء على هذا تعرب (كان) هنا: زائدة ملغاة، لإفادة الزمن الماضي.

أما ثاني الأقوال في (كان) فهو مذهب جماعة من النحاة منهم السيرافي، فقد ذهبوا إلى أنها تعمل الرفع فقط، ومرفوعها ضمير يرجع إلى مصدرها وهو (الكون) إن لم يكن ظاهرا، أو ضميراً بارزاً(٤)

وبناء عليه فكان تامة مكتفية بمرفوعها، وجملتها معترضة بين (ما) وخبرها. أما مجيء مرفوعها ضميراً بارزاً فلم أعثر له على شاهد.

وأما ثالث الأقوال فهو منسوب إلى أبي عمر الجرمي، فقد ذهب إلى أنها ناقصة، قال أبو عليّ «قال أبوعمر: ما كان أحسن زيداً، في كان ضمير (ما) و(أحسن) في موضع الخبر»(٥). وهذا يعني أنها ناقصة وهي مع اسمها وخبرها في موضع رفع خبر (ما). وضعّفه أبوعلي بقوله «هذا قول فاسد»(٦).

وأرى أنَّ القول الأول هو أقوى الآراء وأرجها وذلك لما يلي:

١ ـ لأنه أقوى من الناحية الإعرابية، فلا يؤدي إلى الفصل بين (ما) وأفعل بأكثر من كلمة واحدة، بينما يؤدي القول بإعمالها إلى الفصل بجملة(٧).

١ـ حاشية الصبان على الأشموني ١/٢٣٩ والنحو الوافي ١/٥٢٥

٢ـ النحو الوافي ١/٥٢٥

٣ـ الكتاب ١/٣٧

٤ـ شرح التسهيل، ورقة ١/٥٩، وحاشية الصبان على الأشموني.

٥ـ المسائل البصريات، ١/ ٢٩٤ مسالة ٢٣

٦ـ المصدر السابق

٧ـ شرح التسهيل ق ١/٥٩

٢ ـ وهو أقوى من جهة القياس، إذ يمكن حمل زيادة (كان) على زيادة بعض الحروف، وكذلك زيادة بعض الأسماء كضمير الفصل، وتُحمل أيضا على (ظن) الملغاة مع بقاء معناها.

خاتمة:

والحاصل أن آراء النحاة تشعبت في كل جزء من أجزاء صيغة (ما أفعل) التعجبية:

فبالنسبة لـ(ما) بلغت فيها أربعة أقوال، فقد ذهب سيبويه والبصريون والأخفش في قول، وتابعهم معظم المتأخرين، إلى أنها نكرة تامة بمعنى (شيء) والتقدير: شيء أجمل الحديقة.

وأجاز الأخفش في قول أن تكون اسمًا موصولاً، وعلى هذا يكون التقدير: الذي أجمل الحديقة شيء عظيم.

وأجاز في قول آخر أيضاً أن تكون نكرة موصوفة، والتقدير: شيء أجمل الحديقة جميل.

وذهب الفراء وابن درستويه إلى أنها استفهامية ضمّنت معنى التعجب، والتقدير: أيُّ شيء أجمل الحديقة؟ ثم تُرك معنى الاستفهام إلى التعجب.

وبعد استعراض هذه الآراء وأدلتها رجح البحث قول الفراء وابن درستويه لعدة أسباب هي:

١ ـ قوته من جهة المعنى، فكثيراً ما يخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معان أخرى من ضمنها التعجب، كقوله تعالى «وما أدراك ما يوم الدين»(١).

ومن جهةأخرى فإن جهل المتعجب بالسبب المؤدي إلى عظم ذلك الشيء المتعجب منه يدعو إلى السؤال عن ذلك السبب المجهول.

٢ ـ سهولته من الناحية الإعرابية، فهو لا يحتاج إلى تقدير خبر محذوف على رأي من يقول إن (ما) موصولة أو موصوفة وما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير.

١ـ الانفطار ١٧

وأيضا فإنّ حذف الخبر دون دليل عليه مخالف لأعراف النحاة.

ومما يتعلق بالإعراب أيضا، فإن وقوع (ما) الاستفهاميّة مبتدأ شائع في الاستعمال، كقوله تعالى «مالونُها»(١) «ما القارعة»(٢) بينما لم ترد (ما) التي بمعنى (شيء) مبتدأ كما ذكر النحاة.

أما (أفعل) التعجب فالخلاف فيه بين الكوفيين والبصريين من جهة الاسمية والفعلية، فقد ذهب الكوفيون إلى أنه اسم بينما ذهب البصريون والكسائي من الكوفيين إلى أنه فعل، وقد رجح البحث قول البصريين لقوة استدلالهم المتمثل في الأمور التالية:

١ ـ اتصاله بنون الوقاية وجوباً مع ياء المتكلم.

٢ ـ نصبه المعارف والنكرات.

٣ ـ فتح آخره.

أما المتعجب منه فالخلاف فيه تابع للخلاف في أفعل التعجب، فقد رأى أصحاب القول بالاسمية أن يعرب مشبها بالمفعول به، وذلك لأن أفعل التفضيل فيه معنى الفعل، وما فُضِّل عليه غيره فيه معنى المفعول، فحُمل عليه في إعرابه.

أما القائلون بفعلية (أفعل) التعجب فأعربوا المتعجب منه مفعولا به للفعل قبله. وقد رجح البحث هذا القول الأخير لانسجامه مع القول بالفعلية، ولضعف أدلة الفريق الآخر.

وذُيِّل البحث بتحليل مثال على هذه الصيغة من القرآن الكريم وذلك كتطبيق عملي على هذه المسألة الخلافية.

١ـ البقرة ١٩ ٢ـ القارعة ٢

٣ـ وورد عن العرب قولهم «ما أصبح أبردها وما أمسى أدفأها» بزيادة (أصبح وأمسى) بين (ما) وفعل التعجب. وعد ذلك النحاة شذوذاً، ولم ينقل عنهم خلاف فيه، لذلك لم أجعله في ثنايا بحثي.

ثم انتقل البحث بعد ذلك إلى بيان مسألة خلافية متصلة بهذه الصيغة وهي زيادة (كان) بين ما وفعل التعجب(٣)، وبعد عرض الأقوال الثلاثة فيها رجح كونها زائدة ملغاة عن العمل، وهي تفيد معنى المضي، ثم ذُكرت أسباب الترجيح في موضعها.

هذا وبالله التوفيق والحمد لله أولا وآخراً.

المصادر

١ـ الاتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي. تصوير المكتبة الثقافية، بيروت ١٩٧٣م.

٢ـ الأمالي، لأبي علي القالي، دار الكتاب العربي العربي ـ بيروت. د.ت

٣ـ الإنصاف في مسائل الخلاف، لأبي البركات الأنباري، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، د.ت

٤ـ البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، دار الفكر، بيروت ط٢ ١٩٨٣م

٥ـ البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تح: محمد أبوالفضل ابراهيم، دار الفكر، بيروت ١٩٨٠م

٦ـ التفسير الكبير، للفخر الرازي، دار الفكر، بيروت ط١ ١٩٨١م.

٧ـ جامع الدروس العربية، للشيخ مصطفى الغلاييني، مراجعة عبدالمنعم خفاجي المكتبة العصرية، صيدا، ط١٨ ـ ١٩٨٥م

٨ـ حاشية الصبان على الأشموني

٩ـ خزانة الأدب، للبغدادي، تح: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٩.

١٠ـ ديوان امرىء القيس، ت: محمد أبوالفضل، دار المعارف ١٩٥٨م.

١١ـ شرح تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، لابن مالك الطائي، مخطوطة دار الكتب رقم ١٠ ش نحو.

١٢ـ شرح الحماسة، للتبريزي، تح: محمد محيي الدين عبدالحميد. د.ت.

١٣ـ شرح عمدة الحافظ، وعدة اللافظ، لابن مالك، تح: عدنان الدوري، وزارة الأوقاف العراقية، بغداد ١٣٩٧هـ ـ ـ ١٩٧٧م.

١٤ـ شرح الكافية للرضي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥م

١٥ـ شرح الكافية الشافية، لابن مالك، تح: عبدالمنعم هريدي، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى بمكة المكرمة ط١ ١٤٠٢هـ

١٦ـ الكتاب، لسيبويه، ط (بولاق).

١٧ـ الكشاف، للزمخشري، تح: زينب مصطفى، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٦م.

١٨ـ لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، د.ت

١٩ـ مختار الصحاح، للرازي، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٨م
٢٠ـ المساعد على تسهيل الفوائد، لابن عقيل، تح: د.محمد كامل بركات، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤٠٠هـ.
٢١ـ المسائل البصريات، لأبي علي الفارسي، تح: د.محمد الشاطر أحمد، مطبعة المدني، القاهرة ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
٢٢ ـ معاني القرآن، للفراء، تصوير عالم الكتب، بيروت ط٢ ـ ١٩٨٣م
٢٣ ـ مغني اللبيب لابن هشام، تح: د.مازن المبارك وزميله، دار الفكر، بيروت، ط٦ ـ ١٩٨٥م
٢٤ـ المقتضب، لأبي العباس المبرد، تح: محمد عبدالخالق عضيمه، عالم الكتب، بيروت، د.ت.
٢٥ـ النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦م